المبحث الرابع

النقد الثقافي المقارن

يبدو على وفق هذا المنظور الذي اشتغل عليه المناصرة أن تحليل العلاقة بين طبيعة النقد الأدبي وطبيعة النقد الثقافي ـ مفهوماً ونظريةً وإجراءً ـ لا يوصل إلى حلّ مقنع وضروري ومتوازن لهذه الإشكالية، إذ يظل الغموض والتداخل والسجال قائماً على أكثر من مستوى، لذا ارتأى المناصرة أن يذهب إلى حلّ آخر في العمل على النقد الثقافي المقارن، الذي لا ينظر إلى النقد الأدبي ولا إلى النقد الثقافي بوصفهما نقدين منفصلين، بل يعمل على الجانب التضامني المشترك بينهما في إطار خارج قومي.

فهو يناقش صورة الإشكالية في تنظيم العلاقة بين الداخل نصي والخارج نصي أولاً، وصولاً إلى تبدي الإشكالية على نحو يحتاج فيه الأمر إلى البحث عن حلول بقوله: ((يبدو أن النقد الثقافي الذي بدأ منذ منتصف الستينات، يسير باتجاه رسم ملامح مستقلة لنفسه، بعد أن كان يقع في دائرة الأبحاث الفكرية، في مقابل (النقد الأدبي) الذي حصر اهتمامه بدائرة النص الأدبي، حيث يتّجه النقد الأدبي ـ كما يفترض ـ إلى مساءلة النص بعيداً عن الخارج. وهكذا يسير النقد الثقافي باتجاه الخارج، مستفيداً من العلوم الإنسانية، مع تأكيده المعلن على أنه يقرأ النص من الداخل كخطوة أولى، لكن لا بدّ من توظيف الخارج لتنوير النص. وهنا تقع الإشكالية، أي إلى أيّ حدّ يمكن للناقد أن يتوسع نحو الخارج)) [1].

وعلى الرغم من أن النقد المقارن بآلياته التقليدية وأنماطه المعروفة يعاني اليوم من مشكلات منهجية حقيقية، إلى أن اعتماده حلاً منهجياً عند المناصرة يأتي من خلال البحث عن رؤية منهجية جديدة في التعامل مع الأدب المقارن، تمثلت لديه في ما اصطلح عليه بـ ((النقد الثقافي المقارن)) الذي يسعى إلى التخلص مما تعرّض له الأدب المقارن من نمطية وتاريخية، والإفادة من معطيات النقد الثقافي في تجديد روح الأدب المقارن.

إذ إن الإشكالية المركزية التي مرّت بها منهجية النقد المقارن بعد تجربته الطويلة في الدرس الأكاديمي خاصة، هي ((أن النقد المقارن تخلّى تقريباً عن المنهج التاريخي الفرنسي التقليدي، باتجاه ـ (التناص والتلاص)، على اعتبار أن النص، يتكوّن من طبقات أسلوبية لنصوص سابقة. أما النقد الثقافي المقارن ـ عند إدوارد سعيد ـ فهو يسير نحو الرجوع إلى الوراء، أي العودة إلى المنهج التاريخي، هروباً

---

(1) علم التناص المقارن: 269.

من مقولات مثل: (لا شيء خارج النص)، أو (النص المكتفي بذاته)، هذه المقولات التي يصفها بالشكلانية في ظل صعود الدراسات اللسانية والسيميائية والتفكيكية وغيرها. وهكذا يظل السؤال: إلى أي مدى يمكن للناقد أن يبقى داخل النص، وإلى أي مدى يمكن للناقد أن يخرج بعيداً عن النص، وما قياس هذا المدى، وهل يمكن قياسه)) [1].

وبهذا تكون إشكالية الداخل والخارج النصّي هي أبرز إشكالية تعاني منها المناهج السياقية والمناهج البنيوية معاً، وتبقى الأسئلة الموجّهة إليها أسئلة شائكة ومعقدة، ولا يمكن التوصل إلى حلول موضوعية وعلمية بشأنها إلا باقتراح منهجية جامعة يكون بوسعها تمثّل هذه الأسئلة، والسعي المجتهد إلى إيجاد آليات تتخلّى من جهة عن حدّة الانتماء وتعصّبه إلى الخارج النصّي من جهة، كما تتخلّى عن حدّة الانتماء والتعصّب إلى الداخل النصّي من جهة أخرى، والعمل المنهجي والرؤيوي على توفير بدائل ناجعة نحو قراءة أمثل للنص الأدبي والظاهرة الأدبية وللنص الثقافي والظاهرة الثقافية.

وإذا كان منهج إدوارد سعيد هو الأقرب إلى مباشرة النص الأدبي والثقافي عبر الخارج المتعالق مع نصوص أخرى في ضوء منهجية مقارنة، فإن المناصرة يرى أن سعيد بالرغم من ذلك يصطدم بمشكلة الفوارق المعروفة بين طبيعة الواقعة الثقافية وطبيعة الواقعة الأدبية، من حيث التصدّي النقدي لها بآلية واحدة قد لا تفرّق بينهما، فهو يطرح رؤية سعيد بقوله: ((يرى إدوارد سعيد، الفلسطيني الأمريكي أن النص يتكوّن من (بنية وحدث) أو بنيات وأحداث، ومن الواضح أنه لا خلاف حول وجود (الحدث) النصّي، لكن إدوارد سعيد يتوسع باتجاه امتدادات الحدث النصي نحو الخارج، بتعالقه مع نصوص أخرى خارجية، ثم تولد مشكلة الفوارق بين معالجة (استشهاد ثقافي) و(استشهاد أدبي).)) [2]

إن مشكلة الفوارق بين (استشهاد أدبي) و (استشهاد ثقافي) على صعيد المعالجة النقدية هو ما يجعل الآليات المنهجية قاصرة بعض الشيء، أو على الأقل هي تنحاز إلى استشهاد معين من الاستشهادين على حساب الآخر، مما يتعيّن النظر إلى الطبيعة المنهجية نظرة اعمق في نظر المناصرة، أتاحت له إمكانية التطلّع إلى سعة مدى النص الثقافي وانفتاحه من دون النص الأدبي.

إذ يقول المناصرة في هذا الصدد: ((هنا يمكن أن نتوسع ونجد المدى مفتوحاً بين النص الثقافي، والنصوص الثقافية الأخرى، بلا حدود تقريباً، لكن مشكلة النص الأدبي تبقى قائمة، فهو يمتلك خصوصية مختلفة عن النص الثقافي، مع الإقرار

(1) علم التناص المقارن: 269.
(2) علم التناص المقارن: 269.

بالمشتركات. أعتقد ـ لهذا كله ـ أن النقد الثقافي سوف يستقل تماماً، لأن استعمالاته للنص الأدبي هي استعمالات ذرائعية، أي أن الهدف، ليس التحليل الأدبي، وإنما توظيف التحليل الأدبي لأهداف ثقافية عامة. ومن جهة أخرى استعمل النقد الثقافي طرائق الربط التقليدي بمناهج العلوم الإنسانية، كالتاريخ والتحليل النفسي وعلم الاجتماع وغيرها.)) [1]

لكن المناصرة يجد في منهجية سعيد جزءاً من الحلّ حين تنبه في دراساته الثقافية إلى عجز المنهج البنيوي عن الإيفاء بالمتطلبات الشاملة لفضاء النص وتشكيله وطبقاته، والاكتفاء بالمظهرية الشكلية التي تشتغل على البنية اللغوية له، مما يجعله يتخلّى عن فحص ما ينطوي عليه النص من تمظهرات أخرى لا شكلية تتلبّث في منطقة المسكوت عنه، ولا سبيل إلى إدراك قيمة النص والتعرّف على مقولته الجوهرية من دون ولوجها وتحليل محتوياتها والتعرّف إلى علاماتها ورموزها وسياستها.

لذا نجد أن المناصرة على هذا الصعيد يعالج منهجية إدوارد سعيد من خلال معاينة آلياته الكاشفة والمعبّرة عن عدم براءة النص في إخفاء أديولوجيات لا سبيل إلى إدراك مقولة النص من دون كشفها، إذ ((عندما رأى إدوارد سعيد أن طرائق التحليل البنيوي وما بعد البنيوي، توغل في الشكلانية، وتخفي (الحدث) عن القارئ، لأن الحدث يتضمّن إديولوجيات، انتبه إلى أن النص ليس بريئاً، وأنه يخفي إديولوجيات مناقضة لظواهرية النص البلاغية. وهنا ركّز جلّ اهتمامه على كشف هذا التضاد، عبر قراءته الطباقية للنصوص الثقافية والأدبية. حتى أن (سعيد) كتب سيرته الذاتية (خارج المكان) بنفس القراءة الطباقية، فهو يسرد تفاصيل المرحلة الكولونيالية التي عاشها في فلسطين ومصر، بطريقة طباقية: (طمأنينة البنية المسيطرة) و (صمت البنية المسيطر عليها)، في مقابل سرده للمرحلة التالية من سيرته الذاتية: (بنية الاندماج في المجتمع الأمريكي) و(اكتشاف الفلسطيني المتمرّد).)) [2]

وهنا تبرز شبكة جديدة من الأسئلة المنهجية التي تتوجه إلى مفهوم النقد الثقافي المقارن، والنقد الثقافي، والنقد الأدبي، يسعى المناصرة إلى مواجهتها عبر مجموعة من الملاحظات والمقارنات يجملها فيما يأتي:

((وقد يقال إن النقد الثقافي المقارن، مهمته كشف الأنساق في النصّ الثقافي، كما أن مهمة النقد الأدبي، هي كشف الأنساق في النص الأدبي، من خلال إظهار التعارض الثنائي. وهنا نبرز عدة ملاحظات:

---

(1) م. ن:269-270.

(2) علم التناص المقارن: 270.

أولاً: هل يكتفي النقد الثقافي، بقراءة ثنائية (الصريح ـ المخفي) فقط، أم أنه يقرأ أنساقاً أخرى. بمعنى آخر: هل النص، مجرد ثنائية في طبيعته المنجزة، أم يتشكّل من تعارضات متعددة.

ثانياً: هل يكتفي النقد الأدبي، بوظيفة محددة، وهي قراءات الجماليات الشكلية، بتفكيكها، ثم إعادة تجميعها، ثم الحكم عليها.

ثالثاً: هل ينحصر (النقد الثقافي المقارن) بوظيفة، خارج النص القومي، بمعنى الاكتفاء بوظيفة المقارنة المجردة. وماذا إذا كان النص القومي نفسه ـ وعادة ما يفعل ـ ينطلق نحو الخارج. وما هي حدود الخارج. لنفترض أن هناك خارجين:

1. خارج القومي في النص نفسه.
2. خارج محيط النص نفسه.

فما علاقة هذين الخارجين بالتحليل، إن كنا نسمية: نقداً أدبياً، أم نقداً معرفياً ثقافياً. وهنا يجب أن نميّز بين (النقد الثقافي) في إطار الأدب القومي المغلق، وبين (النقد الثقافي المقارن) الذي ينطلق من القومي إلى الخارج.)) [1].

إن شبكة الأسئلة المنهجية الضرورية التي يطرحها المناصرة هنا تعيد أولاً إنتاج الأسئلة المركزية الأساسية بشأن الأشكال النقدية الثلاثة الكبرى، (النقد الأدبي)، (النقد الثقافي)، (النقد الثقافي المقارن)، وتعالج كل شكل نقدي من هذه الأشكال من خلال الطبيعة المعرفية والمنهجية والإجرائية لكلّ منها، في سبيل الوصول إلى مناخ منهجي شامل يتيح للناقد فرصة تمثّل جديدة للرؤية النقدية والمنهج النقدي.

يظل المناصرة في كل سجاله المنهجي هذا متلبثاً في دائرة الأسئلة بوصفها الوسيلة الأمثل لاستيلاد حلول ممكنة، لكنه يميل إلى اعتبار النقد الثقافي المقارن أحد الحلول المنهجية الشاملة التي يمكن أن تحقق الوفاء الأكبر لمتطلبات النص المقروء نقدياً، لكنه مع ذلك لا يكفّ عن الاستمرار في طرح الأسئلة المنهجية حتى مع وضوح ميله هذا نحو النقد الثقافي المقارن، إذ يقول: ((قد نعد أيضاً (النقد الثقافي) خطوة ثانية بعد النقد الأدبي، لكي نصل إلى النقد الثقافي المقارن الأشمل، وقد نعد ما نسمية: (النقد المتشعّب)، هو نهاية المطاف، ولكن (نسق التداخل والخلط) سوف يبقى قائماً. وقد نلجأ إلى طريقة مختلفة، وهي تحليل النص سواءً أكان: أدبياً أم ثقافياً (وهما مختلطان أصلاً)، إلى التحليل المتزامن: أي قراءة النص: لغوياً وسيميائياً ونفسياً وجمالياً وبلاغياً واجتماعياً وسياسياً ورموزياً وتفكيكياً...إلخ)) [2].

ولعلّ هذا التحليل المتزامن الشامل والكلّي يذهب إلى أكثر الحلقات حضوراً في فضاء النص وعالمه وحيثياته ومفاصله المركزية، على النحو الذي يمكن بوساطته التوصل إلى

---

(1) النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي، عز الدين المناصرة، منشورات دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2005: 312 - 313.

(2) النقد الثقافي المقارن ـ منظور جدلي تفكيكي:314.

قراءة نقدية مستفيضة تجيب عن أسئلته المتشعبة التي لا يمكن احتواؤها على نحو كامل ونهائي.

وهنا يتوقف المناصرة عند منطق التحليل النقدي وفلسفته ورؤيته، ليطرح سؤال الدلالات الحقيقية للنص، ومدى حقيقيتها، مستعرضاً كل المناهج النقدية المعروفة والمتداولة، ناقداً إياها حين تُخلص لحقائق المنهج أكثر من إخلاصها لحقائق النص، وهو ما يجعل من البحث عن نقد متشعب شامل وكلي ضرورة لا بدّ منها بحسب الرؤية التي يجتهد المناصرة في تكريسها هنا، فهو يقول: ((ولكن إلى أي مدى، يمكن أن نحمّل النص دلالاته الحقيقية. وهل هي دلالات حقيقية، حتى إذا استخدمنا كل أدوات التحليل، من النص المغلق حتى قراءة القارئ. صحيح أن التحليلات الجزئية، تفيد في معرفة النص، لكنها تمزّقه إلى شظايا، يصعب تجميعها. فالإشكالية كانت دائماً في قراءة (العلاقات)، واكتشاف (دم النص)، وليس في معرفة تفاصيل الأعضاء.)) [1].

فالنص لديه كائن حيّ ودائم الحراك والصيرورة لا يُفهم إلا من خلال وجوده الحيّ المتحرّك الذي يكوّنه في الزمان والمكان، وليس عبر تقطيعه ومعرفة تفاصيل أعضائه، بمعنى أن النص بوصفه كائناً حيّاً لا يمكن التعامل معه على أنه مجموع أعضائه، فثمة تشعّب عميق وغير مدرك هو الذي يوحّد بين أعضائه ويكشف عن معنى لها من خلال علاقاتها فيما بينها، وليس من خلال وجودها المستقل عن بقية الأجزاء.

إن النقد الثقافي المقارن على وفق هذا التوصيف هو نقد رحب ومفتوح خارج القياسات الضاغطة باتجاه التضييق والغلق، وهو ينظر من الناحية النظرية إلى حركة النصوص كونها حركة في الحياة ومنها وإليها، وهي تمثيل لجوهر الإنسان الفاعل فيها، لذا فإن المناصرة يرى في هذا السياق أنّ ((الأدب والنقد معاً يتحركان باتجاه الحياة، أي باتجاه عدم وضع الأدب في إطار النقد المغلق، هنا ربما تتشكّل اتجاهات في النقد:

1. نقد أدبي خالص مغلق، يدّعي أن حدود هوية النص محدودة، وبالتالي، ينبغي أن يظلّ النقد الأدبي في إطار محدد، لا نتجاوزه.
2. نقد ثقافي، يوسّع تحليل النص باتجاه حركة الحياة، بقراءة العملية الإنتاجية، وفاعلية القراءة من خلال السياق، ونقد ثقافي، يهتم بشكل خاص بما أسميه (محيط الإنتاج)، أي الظروف التي صنعت النص التي أثّرت في النص الثقافي نفسه، حيث يلعب رأس المال والسلطة وأدواتهما دوراً في إشهار

(1) م.ن: 314.

النص أو قمعه، حيث لا نقصد بذلك أي إسقاط خارجي على النص، ليس له علاقة بالنص ومحيط النص، بل على العكس النص: أولاً وأخيراً.)) [1]

إذ إن النقد الثقافي المقارن بجميع أشكاله ومقترحاته المنهجية لا يحصر نفسه ضمن فعالية فردية منقطعة عن فضائها الثقافي والاجتماعي والإيديولوجي، بل يقاربها بوصفها نتيجة طبيعية وحقيقة لحراك الثقافي والاجتماعي والحضارة والإيديولوجي المعبّر عن حركة المجتمع، على النحو الذي لا يمكنه أن يتماثل لتحقيق منجز نقدي عام وشامل وجوهري من دون استيعاب وتمثّل هذا الفهم في التنظير والممارسة النقدية.

يعتقد المناصرة في هذا السياق أنه ((لا يستطيع النقد الثقافي المقارن، بشقيه: الطباقي (عند إدوارد سعيد)، والتعددي (عند كاتب هذه السطور)، أن يرى (النص الأدبي، والنص الثقافي)، مجرد نصوص فردية جمالية بريئة شكلية. فالنص يمتلك في داخله إديولوجيته: القامعة أو الديمقراطية، والنص موجه لقارئ في زمان محدد وزمان مستمر. والقارئ شريك في النص، سواءً أكان: جمهوراً أم ناقداً أم سلطة أم معارضة. كذلك: فالنص المغلق الشكلي، هو عند الناقد المحلل خطوة أولى، وليس خطوة إغلاقية، وهنا يكتمل النقدي الأدبي، حين يقول (نصف الحقيقة) الآخر، أي عندما يفتح النافذة للنقد الثقافي المقارن)) [2]

أي أن فتح النافذة الواسعة والرحبة والمثمرة للنقد الثقافي المقارن من طرف النقد الأدبي والنقد الثقافي هو السبيل الأمثل لتحقيق الوحدة المثمرة بينهما، نحو التوصّل إلى أعلى طريقة ممكنة لفهم النص الأدبي والثقافي والإجابة الأنموذجية عن أسئلته.

لقد أظهر الشاعر الناقد عز الدين المناصرة قدرة معرفية ومنهجية كبيرة على تمثّل هذه الرؤية في مجال مقاربة النقد الثقافي وآلياته وقضاياه، إذ على الرغم من أنه بذلك يدافع ـ على نحو ما ـ عن أنموذجه النقدي في فهم الظاهرة الأدبية والنصية وتحليلها ونقدها، وأن مشروعه النقدي المصاحب لمشروعه الشعري ينطلق أساساً من رؤية شاملة تستند إلى تخصصه الأكاديمي في النقد المقارن والنقد الثقافي المقارن.

---

(1) النقد الثقافي المقارن: 318.
(2) النقد الثقافي المقارن:326-327.

إن الوعي النقدي والفكري والثقافي الذي تكشفت عنه آراء المناصرة في هذا المجال أظهر حيوية كبيرة في أنموذج المقاربة، عبر استطلاع دقيق لظاهرة النقد الثقافي في مقدماتها التنويرية والنهضوية لدى نقاد النهضة العربية، وصولاً إلى النقاد الذين دعوا على نحو نظري وإجرائي قصدي للنقد الثقافي بآلياته ومجالاته وقضاياه، بوصفه بديلاً للنقد الأدبي.

ويمكن القول إن المناصرة هنا حاول أن يمسك العصا من الوسط، إذ أكّد على ضرورة وجود نقد ثقافي بحضور بارز يمكنه الإجابة عن الأسئلة النصية التي لا يتوفر للنقد الأدبي فرصة الإجابة عليها، ولكن من دون إلغاء النقد الأدبي الكاشف عن جماليات النص، فبحضور آليات التحليل الجمالي صحبة آليات التحليل الثقافي يكون النص الأدبي قد كشف عن قيمته ومعناه وخطابه، بحيث تتوسع فرصة القارئ والقراءة للتفاعل مع النص بأعلى صورة ممكنة.